المُحَاضرة السَّادسةُ: إعجازُ القُرآنِ عندَ الزَّمخشريِّ (ت:538هـ)

المسألة الأولى: مَنْ هو الزَّمخشريُّ؟

– هو: أَبُو القَاسِمِ مَحْمُوْدُ بنُ عُمَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ.

– العَلاَّمَةُ، كَبِيْرُ المعْتَزِلَةِ، كَانَ رَأْساً فِي البلاغَةِ وَالعَرَبِيَّةِ وَالمعَانِي وَالبيَانِ، وَلَهُ نَظْمٌ جَيِّدٌ؛ منه قوله وهو يَرْثِي أُسْتَاذَهُ أَبَا مُضَرَ النَّحْوِيَّ:

وَقَائِلَةٍ: مَا هَذِهِ الدُّرَرُ الَّتِي * تُسَاقِطُهَا عينَاك سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ؟

فَقُلْتُ: هُوَ الدُّرُّ الَّذِي قَدْ حشَا بِهِ * أَبُو مُضَرَ أُذْنِي تَسَاقَطَ مِنْ عَيْنِي

– له مُصنَّفاتٌ كثيرة، منها: الكشاف في التفسير، وأساس البلاغة؛ معجمٌ، والمفصَّل في النَّحو.

– تُوفِّيَ رحمه الله لَيْلَةَ عرفَةَ، سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلاَثِيْنَ وَخَمْسِ مائَةٍ 538هـ[1].

المسألةُ الثَّانية: رأيُ الزَّمخشريِّ في الإعجاز من خلال الكشَّاف

سنتناول هذه المسألة في نقاطٍ كالآتي:

– القيمةُ العلميَّة لتفسير الكشَّاف وآراءُ العلماء فيه:

كلماتُ أهل العلم المأثورة عنهم في كتاب (الكَشَّاف)، تكادُ تُجمعُ على أمرين اثنين: الأوَّلُ أنَّ فريدٌ في بابه في بيان بلاغة القرآن الكريم وإعجازه بيانًا عمليًّا تطبيقيًّا. والآخرُ لزُومُ توخِّي الحذرِ من التَّأويلات الاعتزاليَّة التي ضمَّنها الزمخشريُّ الكشَّافَ. ومن أجلى النُّصوص في هذه المسألة كلام ابنُ خلدونٍ رحمه الله (ت:808هـ)، وهو يُؤرخ (لعلم البيان) قال: «وأحوج ما يكون إلى هذا الفنِّ المفسِّرون، وأكثر تفاسير المتقدّمين غُفْلٌ عنه، حتّى ظهر جار الله الزّمخشريُّ؛ ووضع كتابه في التّفسير، وتتبَّع آيَ القرآن بأحكام هذا الفنِّ، بما يبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التَّفاسير.

لولا أنَّه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السُّنَّة، مع وفور بضاعته من البلاغة. فمن أحكم عقائد السّنّة، وشارك في هذا الفنّ بعض المشاركة، حتّى يقتدر على الرّدّ عليه من جنس كلامه، أو يعلم أنّه بدعة فيعرض عنها ولا تضرُّ في معتقده؛ فإنَّهُ يتعيَّنُ عليه

[1] يُنظر: الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص290. و: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص168. و: الذهبي، السير، ج20، ص151. و: السيوطي، طبقات المفسرين، ص120.

النّظر في هذا الكتاب للظّفر بشيء من الإعجاز مع السّلامة من البدع والأهواء. والله الهادي من يشاء إلى سواء السَّبيل»[1].

وذلك ما تجدُ تأكيده عند المعاصرين. يقول الأستاذ مصطفى مسلم: «ولولا أن الزمخشريَّ شوَّهَ جمالَ تفسيرِه بمنازعِ المعتزلةِ أحيانا في تأويل بعض الآيات حسب أصولهم؛ لتبوَّأ تفسيره القمّة بين التفاسير البيانية»[2].

– مسائل الإعجاز النظرية عند الزَّمخشري (التحدي، القدر المعجز، أوجه الإعجاز):

بما أنَّ كتاب (الكشَّاف) كتابُ تفسيرٍ بالأساس؛ فإنَّ الزَّمخشريَّ رحمه الله لم يتعرَّض فيه لقضايا الإعجاز تعرُّضًا نظريًّا لمسائله الكلاميَّة بمقدِّماتها ونتائجها وتبويباتها؛ كما نجد عند الباقلاَّنيِّ رحمه الله مثلاً: (فصل في جملة وجوه الإعجاز، فصلٌ في القدر المعجز، فصل في نفي الشعر عن القرآن ...)، ولكنَّهُ مع ذلك لم يخلُ من الإشارة إلى شيءٍ منها، ومن ذلك:

– التحدِّي والمعارضة والقدر المعجز: وقد أومأ إلى هذه القضايا عرضًا في مُقدِّمته للكشَّاف فقال: «قرآنا عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقا لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدَّى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء»[3].

– أوجه الإعجاز: على أنَّ الزَّمخشريَّ رحمه الله من رُؤوسِ المعتزلة في زمانه، وكان يُجاهرُ بذلك ولا يُخفيه – كما هو معلوم من أخباره في ترجمته –؛ فإنَّه لم يأخذ برأي أصحابه في قضيَّة (الصَّرفة)، بل كان يرى وجه الإعجاز يتبدَّى في شَيئيْن اثنين هما: الإخبار بالغيوب، والنظم[4].

– أمَّا الإخبارُ بالغيوب؛ فإنَّهُ كان يُشيرُ إلى ذلك عند تفسير الآيات التي فيها ذكرٌ لأخبارٍ غيبيَّة، ويُقرِّر أنَّ ذلك من الإعجاز، ومن ذلك:

---

[1] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص763.

[2] مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص54.

[3] الزمخشري، مقدمة الكشاف، ص1.

[4] يُنظر: منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ص172-173.

قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[البقرة:24]، فإنَّهُ قال في جُملة ما قرَّر من تفسيرها: «فإن قلت: من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة؟ قلت: لأنهم لو عارضوه بشيء؛ لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه، إذْ خفاءُ مثلِه فيمَا عليه مبنى العادةِ مُحَالٌ، لا سيَّما والطاعنون فيه أكثفُ عدداً من الذَّابِّين عنه، فحين لم يُنْقَلْ؛ عُلِم أنه إخبارٌ بالغيبِ على ما هو به؛ فكان معجزة»[1].

ومنها أيضًا قوله: «وقوله ﷻ: (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً) من المعجزات، لأنه إخبار بالغيب، وكان كما أخبر به، كقوله: (وَلَنْ تَفْعَلُوا). فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنوا؟ قلت: لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذرّ، وليس أحد منهم نقل ذلك. فإن قلت: التمني من أعمال القلوب وهو سرّ لا يطلع عليه أحد، فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا؟ قلت: ليس التمني من أعمال القلوب، إنما هو قول الإنسان بلسانه: ليت لي كذا»[2].

وقوله تعالى: ﴿**وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً**﴾[الفتح:20]، قال: «وعدكم المغانم، فعجل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها، (ولتكون آية للمؤمنين) إذا وجدوا وعد الله بها صادقا، لأنَّ صدقَ الإخبارِ عنِ الغُيوبِ مُعجزةٌ وآيةٌ، ويزيدكم بذلك هدايةً وإيقانًا»[3].

– وأمَّا (النَّظمُ)؛ فإنَّه يُقرِّرُ في عِدَّة مواضع من (الكشَّافِ) أنَّ مدارَ الإعجاز عليه؛ ومن ذلك قوله: «النظم [...] هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدِّي، ومراعاته أهمُّ ما يجب على المفسر»[4]. كما يقول في موضعٍ آخرَ عن استنباط النكات البلاغيَّة من القرآن: «وهذه الأسرارُ والنُّكتُ لا يُبرِزُها إلَّا علمُ النَّظمِ، وإلَّا بقيتْ مُحْتجبةً في أكمامِها»[5].

[1] الزمخشري، الكشاف، ج1، ص102.
[2] الزمخشري، الكشاف، ج1، ص167.
[3] الزمخشري، الكشاف، ج4، ص341.
[4] الزمخشري، الكشاف، ج3، ص63.
[5] الزمخشري، الكشاف، ج4، ص134.

والملاحَظُ عند كلامِ الزمخشريِّ رحمه الله عن هذين الوجهين من أوجه الإعجاز، أنَّه لم يُفرِد لهما الكلام نظريًّا في مُقدِّمة الكتاب على سبيل المثال، إنَّما كانت إشارتُه إليهما استطرادًا كما ترى، عند تفسيره لآيات القُرآن، واستخراج ما فيها من الصُّور الفنيَّة والنُّكات البلاغيَّة.

– عمل الزمخشريِّ في (الكشَّاف) تطبيقٌ عمليٌّ لما نَظَّرَ الجُرجانيُّ في (الدَّلائل):

أبرز وجهي الإعجاز ظهورًا عند الزَّمخشريِّ دون شكٍّ هو الوجه البلاغيُّ، أو (النَّظم) كما سمَّاه هو، وسماه من قبله الجرجانيُّ، وجُلُّ الكاتبين في إعجاز القرآن الكريم، يجعلون من الزَّمخشريِّ رحمه الله مُطبِّقًا لـ(نظريَّة النَّظم) لعبد القاهر الجرجانيِّ التي بثَّها في كتابه (دلائل الإعجاز)، في كتابه هو في التَّفسير (الكشَّاف). يقول عبد الكريم الخطيب: «لم يُؤلِّف الزَّمخشريُّ مُؤَلَّفًا خاصًّا بالإعجاز، وإنَّما قام بمحاولةٍ في هذا الباب، لم يسبقْه إليها أحدٌ، ولا نظنُّ أنَّه جاء مِن بعده مَن جرى معه في هذا الطَّريق، ذلك أنَّه أراد أن يُقيمَ أدلَّة الإعجازِ وشواهدَهُ من آياتِ القُرآن الكريمِ، وأن يجعل القُرآن كلَّه مجالاً للنَّاظرين في الإعجاز، والباحثين عن مواقعه في كتاب الله، ولهذا فقد جعل تفسيره المعروف باسم: (الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعُيون الأقاويل في وجوهِ التَّأويل) لتحقيق هذه الغايةِ الَّتي جَعَلَها كلَّ همِّه وغايته، وهو ينظُر في كتاب الله»[1].

كما يُؤكِّدُ هذا مصطفى مسلم بقوله: «إلَّا أنَّ الَّذِي حازَ قَصْبَ السبقِ في هذا المضمارِ، وجعلَ كتابَه تطبيقًا عمليًّا لآرائِه في الإعجازِ البيانيِّ للقرآنِ الكريمِ هو الإمامُ الزمخشري من أبرز علماء المعتزلة [...]

لم يؤلف الزمخشري مؤلّفا خاصّا بالإعجاز، إلا أنه سلك في تفسيره مسلكا دقيقا أبرز فيه وجوه إعجاز القرآن من خلال الأساليب البلاغية التي نبّه عليها وهو يفسر الآيات القرآنية. وعلى الرغم من أنه لم يقف عند كل كلمة، إلا أنه يطيل الوقوف عند الآيات التي تكشف له وجوها من روائع البيان وعجيب النظم في تقديم كلمة على كلمة أو اختيار كلمة بدل كلمة أو حرف مكان حرف، ويتحدث عن كل ذلك بأسلوب الأديب الضليع والبلاغي الذوّاقة الذي يتذوّق جمال الكلام وأفانين القول»[2].

ودعوى الأستاذين الخطيب ومسلم بأنَّ الزَّمخشريَّ لم يُؤلِّف كتابًا خاصًّا بالإعجاز، لعلَّها تنتقضُ بما طُبِعَ منسُوبًا للزَّمخشريِّ رحمه الله، وهي (إعجاز سورة الكوثر)؛ فإنَّها رسالةٌ خاصَّةٌ في الموضوع.

كما يقول الأستاذ فضل عباس رحمه الله (ت1432هـ=2011م): «لقد كان فضلُ الله عظيمًا أنْ قيَّض مثل عبدِ القاهر يُبدِعُ في نظريَّة النَّظم، ولقد كان فضل الله عظيمًا أنْ قيَّض لنا مثل الزَّمخشريِّ يُطبِّقُ هذه النَّظريَّة

[1] الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص298.

[2] مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص53.

تطبيقًا عمليًّا تفصيليًّا في تفسير كتاب الله تعالى (تفسير الكَشَّاف). لقد كان الزَّمخشريُّ بحقٍّ عالمِا ألمعِيًّا، وجهبذًا أحوذيًّا، هضم نظريَّة عبد القاهر في النَّظم، واستثمرَها استثمارًا تامًّا في تطبيقها على آيِ الذِّكرِ الحكيمِ، وظهر ذلك جليًّا في الكشَّاف ..، بل زاد عليها كثيرًا ممَّا جادت به قريحته، وأنتجه فِكره»[1].

– نماذجُ من تطبيقاتِ الزَّمخشريِّ لنظريَّة النَّظم على الآيات القُرآنيَّة:

لم يتركِ الزَّمخشريُّ رحمه الله تقريبًا بابًا من أبواب البلاغة الَّتي بنى عليها الجُرجانيُّ رحمه الله (نظريَّة النَّظم)؛ من قبيل التقديم والتَّأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتَّنكير، والتَّأنيث والتَّذكير وغيرها، إلاَّ وتناوله بالتَّطبيق العمليِّ باستنباطِ ما هُنالك من النَّكات البلاغيَّة، بل وزاد على ذلك أُمورًا أُخرَ ممَّا تعلَّق بالمفردةِ القُرآنيَّة، وفيما يلي أمثلة على ذلك[2]:

1- استعمالُ اسمِ الإشارةِ: وقد بيَّن في ذلك الغرض البلاغيَّ من استعمال اسمِ الإشارة البعيد والقريب؛ فعند قوله ﷻ: ﴿**قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ**﴾[يوسف:32] على سبيل المثال، قال: «قالَتْ: (فَذلِكُنَّ)، ولم تقل (فهذا) وهو حاضر، رفعاً لمنزلته في الحُسْن، واستحقاق أن يُحَبَّ ويُفْتَتَن به، ورَبْطًا بحاله، واستبعاداً لِمحلِّهِ»[3]. وفي مُقابلِ ذلك عند قوله ﷻ: ﴿**وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[العنكبوت:64]، قال: «(هذِهِ): فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة. يريد: ما هي- لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها -؛ إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون»[4].

2- استخدامُ الجُملة الاِسميَّة والفعليَّة: ومن ذلك ما ذَكَرَ عند قوله سبحانه: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً**﴾[لقمان:33]، وكلامه عن السِّرِّ في العدول عن الجُملة الفعليَّة (يجزي والدٌ) إلى الاسميَّة (مولودٌ هو جازٍ)؛ فقال: «فإن قلت: قوله (وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً) وَارِدٌ على طريقٍ من التوكيد لم يَرِدْ عليه ما هو معطوف عليه؟ قلت: الأمر كذلك، لأنَّ الجملة الاسميةَ آكدُ من الفعليَّةِ، وقد انضمَّ إلى ذلك قوله: (هُوَ)، وقوله: (مَوْلُودٌ)؛ والسبب في مجيئِه على هذا السَّنَنِ: أنَّ الخطاب للمؤمنين؛ وعِلْيَتُهُمْ قُبِضَ آباؤُهم على الكفر وعلى الدين الجاهليِّ، فأُرِيدَ حسمُ

[1] فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص83.

[2] يُنظر: منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ص174 وما بعدها.

[3] الزمخشري، الكشاف، ج2، ص466-467.

[4] المصدر نفسه، ج3، ص463.

أطماعِهم وأطماعِ النَّاس فيهم؛ أن ينفعوا آباءَهم في الآخرة، وأن يشفعوا لهم، وأن يُغْنُوا عنهم من الله شيئًا، فلذلك جيء به على الطريق الآكد. ومعنى التوكيد في لفظ (المولود): أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي وُلِدَ منه، لم تُقبلْ شفاعتُه، فضلًا أن يشفعَ لمن فوقَه من أجدادِه، لأنَّ (الولد) يقعُ على الولدِ وولد الولد، بخلاف (المولود) فإنَّه لِمَنْ وُلِدَ منك»[1].

3- التقديم والتَّأخير: ومن ذلك كلامه في قوله تعالى: ﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ (مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ) مِنَ اللَّهِ**﴾[الحشر:2]، قال رحمه الله: «فإن قلت: أيُّ فرقٍ بينَ قولِك: (وظنُّوا أن [حصونهم تمنعهم]) أو ما نعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟ قلتُ: في تقديم الخبر على المبتدإ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسما لـ(أنَّ) وإسناد الجملة إليه، دليلٌ على اعتقادِهم في أنفسِهم أنَّهم في عِزَّةٍ ومَنَعَةٍ لَا يُبَالَى معها بأحد يتعرَّضُ لهم أو يطمع في مُعَازَّتِهِمْ، وليس ذلك في قولك: وظنوا أنَّ (حصونهم تمنعهم)»[2].

4- التَّعريف والتَّنكير: وتعرَّض له في مواطن عديدةٍ منها قوله ﷻ: ﴿**لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ**﴾[الحاقَّة:12]، قال عندها: « فإن قلت: لم قيل: (أذن واعية)، على التوحيد والتنكير؟ قلت: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يُبَالى بهم بالة وإن ملئوا ما بين الخافقين»[3].

5- الحذفُ والإثبات: ومن جُملته حذف (المفعول به) في مثلِ قوله ﷻ: ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:22]. قال رحمه الله: «ومفعول (تعلمون) متروك كأنه قيل: وأنتم من أهل العلم والمعرفة. والتوبيخ فيه آكد، أي أنتم العرّافون المميزون. ثم إنّ ما أنتم عليه في أمر ديانتكم من جعل الأصنام للّه أندادا، هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل»[4].

وهكذا في غيرها من الأساليب؛ كالإظهار والإضمارِ، والالتفات، والإيجاز، والاستفهام، وغيرها من المباحث. وللمَكانةِ الكبيرة الَّتي تبوَّأها عَملُ الجُرجاني والزمخشري في الإعجاز؛ فإنَّ بعض الباحثين يرى أنَّ الإبداع الحقيقيَّ في الإعجاز وقف عندهما، وما عملُ الَّذين جاؤوا مِن بعدُ إلاَّ استفادةٌ من عملهما. يقول الأستاذ فضل عبَّاس رحمه الله (ت:1432هـ=2011م): «ولعلَّنا لا نُغالي ولا نتجاوزُ الحقيقة إذا قلنا: إنَّ الإبداع

[1] الزمخشري، الكشاف، ج3، ص504.
[2] المصدر نفسه، ج4، ص499.
[3] المصدر نفسه، ج4، ص600.
[4] المصدر نفسه، ج1، ص96.

في قضايا الإعجازِ وقف عند ما قرَّره عبدُ القاهر في نظريَّته، وطبَّقه الزَّمخشريُّ في كشَّافه، والَّذين جاؤوا مِن بعدِهما لم يزيدُوا شيئًا ذا بالٍ، إنَّما كان الَّذي ذكروه شرحًا أو اختصارًا أو نقلاً، وقد تظهرُ عليه سِماتُ التَّكلُّفِ»[1].

[1] فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص86.